

كتاب الشهر

دراسات سوسولوجية تطرح الأسئلة وترصد الإشكاليات شباب لبنان.. الهجرة طوقاً للنجاة؟

"لماذا يهاجر الشباب العربي - بحوث في اشكاليات الهجرة والمستقبل" عنوان مؤلف بحثي يتضمن حوالي 25 دراسة ترصد ظاهرة الهجرة في مجتمعاتنا من زوايا شتى، وتتوقف عند الخصوصيات في البلد الذي تتناوله الدراسة. كتاب مرجعي في احوال الهجرة الشبابية على امتداد العالم العربي

الابحاث قاربت الوضع في كل بلد عربي على حدة، من خلال هؤلاء الاختصاصيين. وإذا كان الكتاب قد اضاء "على سؤال الهجرة في السياق العربي المعاصر، خصوصاً لجهة ارتباطه بفئة عمرية - اجتماعية تشكل قلبه النابض ورهانه الاساس لرفع التحديات المستقبلية التنموية والتحررية" كما ورد في المقدمة، الا اننا سنركز في مراجعتنا على الابحاث التي تناولت لبنان بشكل خاص، خصوصاً وانها تضيء على متغيرات اجتماعية واقتصادية جديدة تناولت العائلة والعقلية الاجتماعية والتقاليد...

قبل ذلك، لا بد من التوقف قليلاً عند مقدمة الكتاب التي تقارب موضوع الهجرة بعناصرها المشتركة بين مختلف البلدان العربية. اذ تشير الى انه بلغ اجمالي المهاجرين العرب، طبقاً للبنك الدولي في عام 2009، اي قبل الاضطرابات و"الثورات"، نحو 13 مليوناً تركز عشرة منهم في اوروبا والولايات المتحدة، بينما ينتشر الباقي في الدول العربية، على رأسها دول مجلس التعاون الخليجي. واطهرت المقدمة ان تحويلات المهاجرين العرب الى بلدانهم الاصلية "اعلى بكثير من مساعدات التنمية الرسمية العربية وغير العربية لهذه البلدان، وارتفعت مساهمتها في خفض عجز موازنة المدفوعات من العملة الاجنبية". واوردت ان التقارير المتعلقة بالهجرة العربية الخارجية في العقدين الاخيرين اشارت الى ان هجرة الشباب هي الاعلى من بين هجرات الفئات العمرية الاخرى، اذ يشكل الشباب ممن هم دون الـ35 نحو ثلاثة ارباع المهاجرين، بينما يشكل من هم دون الـ25 نحو 50 في المئة منهم. الاخطر من ذلك ان حصة كبيرة من هؤلاء هم من ذوي الكفايات المهنية والعلمية.

تخلص المقدمة الى ان هجرة الشباب العربي تعد "اشكالية جوهرية، فهم يفقدون الامان في هذا المناخ، يأتي كتاب "لماذا يهاجر الشباب العربي - بحوث في اشكاليات الهجرة والمستقبل" (المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات). الكتاب هو ثمرة مجموعة ابحاث ودراسات منتقاة، اجراها عدد من الاختصاصيين في مختلف العواصم العربية، قدموها في محور "الشباب العربي: الهجرة والمستقبل" ضمن المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والانسانية الذي عقده "المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات" في الدوحة عام 2017.

الاجتماعي والنفسي والفردية والجماعي في ظل الاوضاع الداخلية المضطربة، وتراجع معدلات النمو والتشغيل، وتدني فرص المشاركة الاجتماعية السياسية بسبب ضيق المجال العام والتحكم السلطوي بمؤسسات المجتمع المدني، وحرمانه من العمل والصوت المعبر عنه في وقت واحد في ظل استمرار تقاليد الانظمة التسلطية العربية".

عوامل كثيرة مشتركة - كما تظهر المقدمة - تدفع الشباب الى الهجرة من المغرب الى لبنان. الا ان ورقة الباحثة اللبنانية ماريون يونس تضيء على جانب من الهجرة اللبنانية لم تقاربه الدراسات بالشكل الكافي.

تحت عنوان "هجرة الكفايات النسوية اللبنانية... ظاهرة مستجدة"، تتعمق الباحثة في هجرة المرأة اللبنانية بعدما كان هذا الجانب يخضع لاعتبارات اجتماعية كثيرة. في المستهل، تقدم يونس لمحة تاريخية عن دخول المرأة سوق العمل في القرن التاسع عشر، تزامناً مع الثورة الصناعية. طبعاً، تأخرت المرأة اللبنانية في الانخراط في سوق العمل مقارنة بالمجتمعات المتقدمة لغاية الحرب الاهلية اللبنانية التي شهدت انقلاباً في هذا المعطى. تشير الباحثة هنا الى عوامل عدة تضافرت ودفعت بالمرأة الى سوق العمل، اولها انشاء فروع للتعليم العالي في الجامعات اللبنانية، حتى فاقت نسبة الملتحقين بالجامعة (53 في المئة) نسبة الملتحقين من الذكور (47 في المئة) في العام الجامعي 2009 - 2010. اضافة الى ذلك ان الحروب الاهلية والاقليمية التي عايشها لبنان على امتداد سنوات طويلة دفعت بالمرأة الى سوق العمل، خصوصاً مع انخفاض نسبة الخصوبة، ما جعلها توفق بين واجباتها العائلية وتلك المهنية. في ثمانينات القرن الماضي، ارتفعت هجرة اللبنانيين الى

دول الخليج، تزامناً مع زيادة الشباب المتعلم وعجزه عن الهجرة الى اوروبا.

الا ان الملفت اكثر هو بروز ظاهرة المهاجرات اللبنانيات الى الخليج، وهذا ما لم يكن معهوداً من قبل. من خلال دراسة 15 حالة لمهاجرات لبنانيات يعملن في الخليج، تخلص الباحثة الى استنتاجات اجتماعية واقتصادية عدة على رأسها ان غالبية المهاجرات اللبنانيات العاملات في الخليج هن من الشريحة العمرية ما دون الثلاثين، اي انها هجرة فتية، وان معظمهن هاجر بعد التخرج من الجامعة مباشرة.

وتوضح عبر رسم بياني اختصاصات المهاجرات ابرزها ادارة الاعمال، والصحافة والمصارف، وادارة الفنادق، كما تخلص الى ان ثلثي الكفايات الشابة المهاجرة تخرجت في الجامعة اللبنانية، وهي "صورة تناقض الصورة السائدة والمروجة التي يسوق لها كان هجرة الكفايات عموماً، والنسوية تحديداً، تقتصر على خريجات الجامعات الخاصة". اما عن الاختصاصات المطلوبة هناك، فلاحظت انها بعيدة من تلك النظرية كالعلوم السياسية، بل انها انحصرت "في اختصاصات عصرية عالمية، تتوافق مع هيمنة قطاع الخدمات في سوق العمل الدولية، خصوصاً الخدمات المالية وادارة الاعمال والخدمات الفندقية، وهي كلها اختصاصات تتطلبها بقوة سوق العمل الدولية".

وتنتقل الباحثة الى الاسباب التي دفعت الى الهجرة النسائية، ابرزها ضيق سوق العمل. فالحرب اللبنانية التي امتدت من عام 1975 حتى عام 1990، حملت معها انعكاسات سلبية على مجمل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية. هكذا، ادت الى عزوف الرساميل، خصوصاً العربية، عن الاستثمار في القطاعات الانتاجية. كما "تحول الاهتمام من لبنان الذي كان يؤدي دور الوسيط بين الشرق والغرب الى دول الخليج، خصوصاً الامارات العربية المتحدة". حتى في مرحلة السلم واعادة الاعمار، شهد الوضع الاقتصادي تباطؤاً في النمو والاستثمار، ما انعكس سلباً على فرص التشغيل. ولا ننسى عامل تحسين الدخل، اذ بينت الدراسة ان معظم المستجيبات سبق لهن العمل في لبنان بمرتب راوح بين 600 الف ليرة لبنانية ومليون و200 الف ليرة لبنانية، وغالبية هؤلاء ينتمين الى



غلاف الكتاب.

عدد اللبنانيين الذين غادروا البلاد من دون عودة في عام 2019 بلغ نحو 26 الفا

اسر فقيرة ويساعدن عائلتهن. لذا، "يصبح عامل تحسين مستوى الدخل امراً ملحا يضغط في اتجاه اتخاذ قرار الهجرة والعمل خارج لبنان".

وإذا كانت ظاهرة الهجرة النسوية مستجدة، فان هجرة الاكاديميين والاكاديميات ليست كذلك. لكن في "النوع الاجتماعي والتنقل المرتبط بالارتقاء بالمستوى التعليمي - تجارب الاكاديميين والاكاديميات اللبنانيات"، تضيء الباحثة مريم الحصابي على ازدياد حجم الهجرة الدولية للطلاب والطالبات في لبنان خلال العقود الاخيرة. بل ان لبنان "يسجل اعلى نسبة من هجرة الطلاب وذوي المهارات العالية في الوطن العربي".

اين يتوجه هؤلاء تحديداً؟ تظهر قاعدة اليونسكو ان فرنسا تُعتبر المقصد

الاول للطلاب الجامعيين اللبنانيين بين عامي 1999 و2011، تليها الولايات المتحدة الاميركية. وتظهر قاعدة بيانات المكتب الاحصائي للاتحاد الاوروبي عن عدد طلاب التعليم العالي في فرنسا بين عامي 2004 و2012 ان طلاب الدكتوراه يمثلون ثلث مجموع الطلاب اللبنانيين في فرنسا منذ عام 2004.

لكن ما هي الاسباب التي تدفع هؤلاء الى ترك بلدهم لاستكمال دراستهم في الخارج؟

تتوقف الباحثة في دراستها عند اجوبة المستجيبين الذين قالوا لها ان "العوامل المرتبطة بمؤسسات التعليم العالي اللبنانية ادت دوراً مهماً في قرار السفر بغية الارتقاء بمستواهم الاجتماعي. وكان توافر المنح هو العامل المشترك والاكثر ذكراً من الاكاديميين الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه في الخارج او لبنان". اضافة الى ذلك تميز البيئة التعليمية والبحثية في الخارج (المكتبة والمختبرات والندوات والمؤتمرات...)، وغياب برنامج دكتوراه في بعض الاختصاصات في لبنان في حين ان هؤلاء المستجيبين يدركون "ان ثمة حاجة الى شهادة اجنبية لتحقيق افاق المستقبل الوظيفي حتى يلتحقوا بهيئة التدريس، خصوصاً في مؤسسات التعليم العالي في لبنان".

وفي حين هناك تكافؤ ومساواة في المنح الجامعية للذكور والاناث، الا ان البيئة العائلية تلعب دوراً في قرار الطالبة في الهجرة لاستكمال تعليمها. اذ تلحظ الباحثة: "خلافًا للاكاديميين اللبنانيين الذكور الذين يتصرفون على نحو مستقل واستراتيجي في التخطيط لسفرهم سعياً وراء العلم، وتنفيذ خططهم في منأى عن القيود العائلية، تتخذ الاكاديميات قرار الانتقال بناء على منظومة العلاقات القائمة على اساس الجنس ضمن العائلة".

مع ذلك، بينت نتائج الدراسة ان العلاقات بين الجنسين داخل الاسرة اللبنانية مرنة ومتقلبة، ويمكن اعادة انتاجها او تغييرها باجراءات فردية. دراسات في محاور كثيرة لم تتم الاضائة عليها سابقاً، يضمها الكتاب الضخم الصادر حديثاً، الذي تتوقف ابحاثه عند كل بلد عربي على حدة. مع ذلك، جسر طويل يربط العالم العربي من شماله الى جنوبه، الا وهو الاسباب التي تدفع هؤلاء الشباب، تلك الطاقة المتفجرة بالامكانات، الى الانتقال الى الضفة الاخرى من العالم!